تجربة حياة (٢)

في الوقت الذي كان فيه أهل جدة يقضون (الويك إند) في القاهرة وبيروت، ويتفرجون على الأفلام في دور السينما الأهلية في الهنداوية والكندرة وغيرها، وفي الوقت الذي اكتملت فيه عقبة الهدا عام ١٣٨٨هـ كنت أنا لم أولد بعد، وكانت تلك القرى في رؤوس الجبال البعيدة لمَّا تصلها الحضارة، وفي انتظار التنمية وفي انتظار الخير القادم، فعشنا في ضنك من العيش قليلاً في بداية حياتنا، ولكنها ذكريات جميلة وخبرات رائعة لم تتح للأجيال التي عقَبتنا.

في تلك الفترة الزمنية التي بدأت فيها الحضارة تتمدد وتناهز الهجر والقرى أتى جيلي إلى الحياة، وهي حقبة عاصفة، سريعة، تهطل بمزون غزيرة من العلم والخدمات والآلات والفرص والمتغيرات، التي عجز آباؤنا الفلاحون البسطاء عن استيعابها، وقاوموا اجتياحها قليلاً، ولكنهم سرعان ما استسلموا للتغيير، ولذلك فإن جيلنا بحق هو جيل (البدايات)، بدايات الدهشة باكتشاف أمور جديدة، بدايات الفرح والبهجة بالراديو ثم السيارات والكهرباء والثلاجة والإسفلت والسفر، و(التميس) الذي عرفناه لأول مرة مع عمي عندما أحضره من الباحة، ثم عرفناه في المدرسة وأكلناه مع الفول، بعدما يخرج المعلمون ويتركون لنا بقايا فطورهم الذي كان يحضره معلم غامدي اسمه فهد الغميطي من الباحة، كل شيء بالنسبة لنا كان جديداً ورائعاً، حتى ساندويتش البيض المسلوق عند (النصّاب) في سوق النقعة، أو ذلك الذي نخطفه من يد زميلنا الطالب المصري أو السوري أو الفلسطيني، الذين كان يعمل آباؤهم في القرى كمعلمين أو أطباء أو مقاولين.

obeikandl.com

ولدت في شهر رمضان عام ١٣٨٩هـ وكانت والدتي في صباح ذلك اليوم تعمل في الحقل كأي يوم من حياتها، ثم عادت للبيت وجهزت (فطور رمضان) وأطعمت زوجها وصغارها وأهل البيت، وفي هجوع الليل فاجأها المخاض فتم استدعاء نساء القرية ليهبّين إلى بيت آل صالح لأن (سعدية بنت المالحي) ستلد، وحضرن بسرعة وبدأن بتجهيز مسرح العملية ابتداءً بإبعاد الرجال والأولاد من المنزل وإشعال النار في (المَلَّة) وتسخين الماء وتجهيز ما توفر من أغطية وأردية وخلافه، ومن المعروف أن كل قرية بها امرأة أو اثنتان على الأقل يتقن مهنة (الداية) نظراً لحاجة النساء إليهن في وقت لم تكن به مستشفيات، أو أنها موجودة ولكن في المدن البعيدة، وقبيل الفجر كتبت لإنسانين حياة جديدة، أمٌّ من بعد ولادة عسيرةٍ، وطفل ذكر أسماه أبوه صالحاً حتى قبل أن يولد.

درست المرحلة الابتدائية في مدرسة القرية، وفي الصف السادس الابتدائي انتقل والدي إلى رحمة الله تعالى.

أذكر يوم وفاة والدي، وكأنه اليوم، كان مستلقياً على فراشة، في حال إغماء واحتضار لما يقارب الأسبوعين، لا يحرك ساكناً، ولا يفتح عينيه، ويعيش على الماء الذي كانوا يقطرونه له في فمه بورق الريحان، وكان الرجال من الجماعة طيلة النهار كخلية النحل في منزلنا، قريبين من أحمد بن جريبيع، صديق هذا وقريب ذاك وحبيب ذلك، ينتظرون شفاءه، وينتظرون موته، أما في الليل فيبقى أقاربه فقط (يسامرونه) حتى الفجر، وهو المصطلح المخفف للمناوبة تحسباً لموت المريض في أية لحظة.

في صباح يوم وفاته، وبعد ٧٣ عاماً من الحياة، وبعد أربعة عشر يوماً من الإغماء، استفاق أحمد بن جريبيع، هلَّل وكبَّر، وهلَّل الجماعة وكبَّروا معه، واستبشروا خيراً، طلب أن يسندوه ليقعد، رفعوه قليلاً، التفت يميناً ويساراً، سلَّم على الجماعة، سأل عن أمي، دعوها فأتت وهوت إليه وهي تبكي فرحاً وحزناً، سألها عني وعن أخي وأخواتي (عبدالله، شريفة، ذهبة) فأخبرته بأننا بخير،

وأننا نجحنا في المدرسة ولم تكن الاختبارات أتت بعد، دعتنا أمي فانكبينا عليه نقبل جبينه، ثم قال لها: لي عند فلان كذا ولفلان عندي كذا وكذا، والله الله في الأولاد، ثم طلب من الجماعة أن يعيدوه ليضطجع على ظهره، رفع سبابته وتشهد، ثم انتفض قليلاً، وأسلم روحه إلى بارئها، في مشهد مهيب، رأيت الرجال فيه يبكون بدمع سخي، لم أشهده قبلاً ولا بعداً إلى اليوم، لقد استفاق ذلك الرجل الصالح لمدة نصف ساعة فقط، أدلى فيها بوصيته، وودَّع فيها زوجته وأختيه (ثريا وجمعة) وأخاه (صالحاً) وأبناءه وأقاربه وجماعته، ثم تشهد ومات.

عشنا أيتاماً، ولكن ليس مثل بعض الأيتام، فلقد كنا في كنف ورعاية خالٍ عظيم، هو خالي الأستاذ الكبير أحمد بن محمد المالحي، فكان لنا كالأب، بل كان لنا كل شيء تقريباً، حتى أنه عاوننا على بناء بيتنا والانتقال من البيت الحجر إلى البيت الجديد خلال أقل من سنتين، وأعطاني سيارته الهايلكس ٧٦ ثم اشترى لي سيارة هايلكس ٨١، وفي الحقيقة أنني لم أشعر بفقدان والدي، لصغر سني من جهة، ولوقوف خالي بجانبنا من جهة أخرى، كما كان خالي الآخر عبدالله بن محمد المالحي لا يقل عنه عطاءً ولكنه كان مستقراً بمدينة جدة، وأبناء عم أمي (أخوالي أيضاً) كانوا جميعاً واقفين معنا، وكذلك لا أنسى عمي صالح جريبيع -رحمه الله - الذي كان سنداً وسكناً لنا ومدافعاً عن حقوقنا، ولكن من بعيد لبعيد كما يقال لحساسية القرابة من أمي من جهة، ولكون أخوالي أولى بأختهم من جهة أخرى، وأذكر أن عمي وأخوالي تنافسوا على الوصاية علينا والحضانة لنا، ولكن أمي أطال الله في عمرها قررت أن تكون الوصاية في يدها حلّاً للنزاع، ووقف مع والدتي الجميع دون استثناء، لأن المجتمع حينها كان مجتمعاً مترابطاً متراحماً متآلفاً، لدرجة أننا كنا ننادي كل نساء القرية بأمي فلانة أو أختي فلانة والرجال بأبي أو أخي فلان.

بعدها قام خالي أحمد بتسجيلي في المعهد العلمي بالمندق لأنه كان يمنح طالب المتوسط ٣٠٠ ريال شهرياً والثانوي ٦٠٠ ريال.

درست في المعهد حتى الثاني الثانوي، وكنا نداوم في البداية في طريق غير مسفلت، ينقلنا سعيد بن عون عليه رحمة الله، ومرة قطعنا السيل فلم نستطع العودة وبتنا في المندق.

في بداية الصف الثالث الثانوي شعرت بأنني كبرت ويجب علي أن أقوم برعاية أسرتي المكونة من أختين وأخ أصغر مني بالإضافة لوالدتي (ورغم أنه تفكير مراهق غير صائب بتاتاً) إلا أنني نفذته رغم كل محاولات إقناعي بإكمال دراستي، فسافرت إلى جدة وعملت في مستشفى المغربي للعيون لمدة سنة، بالإضافة إلى القيام بمشاوير نقل أفراد وبضائع بالهايلكس ٨١ التي اشتراها لي خالي أحمد طيلة ما تبقى لي من النهار وبعضاً من الليل، وكنت أرسل لأمي ما يتوفر لي بعد راتبي الزهيد.

بعد سنة قررت مع اثنين من أبناء القرية (محمد راجح، وعلي صقران) الانتقال للرياض للبحث عن وظيفة عسكرية، وفعلاً قبلنا جميعاً، واحد في البحرية، وأنا وأحدهم في سلاح المدرعات، هو في دورة تسبق دورتي، وبعد أن وصلت محلقاً على (الزيرو) عبر طائرة السلاح الجوي إلى تبوك استقبلنا أحد الضباط وأخذ يدقق الأوراق فوجد أن شهادتي ليس فيها الفخذ (الحسني) وليست متوافقة مع ما في البطاقة، حاولت إفهامه بأن اسمي في الشهادة كان حسب حفيظة الوالد رحمه الله وقد مات قبل أن يأتي نظام إضافة الفخذ لكنه أبى وأعادني من حيث أتيت.

عدت إلى الرياض في نفس الليلة على الخطوط السعودية، استقبلني ذلك الرجل العظيم أحمد بن عايد الذي ودعني فجراً من قاعدة الرياض الجوية، ثم ذهبنا إلى جامعة الإمام محمد بن سعود في اليوم التالي لأن المعاهد تتبع لها ثم سافرت للمندق لتعديل الشهادة فالرياض مجدداً، ولكن الأوان قد فات، وأول دورة ستكون بعد ستة أشهر، فقررت العودة للدراسة من جديد، والتحقت بمعهد جدة العلمي وتخرجت في نفس العام، وكنت دائماً ولله الحمد منذ الابتدائية

إلى الجامعة من الطلاب أصحاب المركز الأول أو الثاني والثالث في أسوأ الأحوال بتوفيق الله، ثم قدمت على جامعة الملك عبدالعزيز وجامعة أم القرى في الطائف فقبلت في الاثنتين ولكني اخترت الطائف لقربي من أهلي، وخلال أربع سنوات تخرجت كطالب مثالي على مستوى الجامعة، وتوظفت معلماً بعدها بثلاثة أشهر ولله الحمد.

obeikandl.com